حياة أعظم الرسل

عظمة محمّد في تواضعه

عظمة محمّد في تواضعه

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ التَّوَاضُعَ كُلَّ الْحُبِّ ، وَيَكْرَهُ الكِبْرَ والتَّكَبُّرَ كُلَّ الْكُرْهِ . يَظهَرُ بِطَبيعَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ ، وَلاَ يَتَكَلَّفُ وَلاَ يَتَصَنَّعُ ، وَلاَ يُحِبُّ التَّعَاظُمَ وَالتَّظَاهُرَ بِالْغِنَى أَوِ الْقُوَّةِ أوِ السُلْطَانِ . فَفِى حَيَاتِهِ كُلِّهَا كَانَ مَثَلاً كَامِلاً ، مُتَوَاضِعاً فِى غَيرِ ضَعْفٍ ،

سَهْلاً لَيِّنًا فِى غيرِ عُنْفٍ .

كَانَ سَيِّدًا لِلْعَرَبِ وَغَيرِهِم ، وَمَــعَ ذٰلِكَ كَانَ يَعِيشُ عِيشَةً طَبِيعِيَّةً سَهْلَـةً ، خَالِيَةً مِن مَظَاهِرِ السُّلْطَةِ . اِشتَرَكَ فِى بِنَاءِ الْمَسجِدِ بِالْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ ، وَاعتَمَدَ عَلَى نَفسِهِ فِى كُلِّ عَمَلٍ ، وَلَم يَتَّكِلْ عَلَى أَحَدٍ لِيَكُونَ بَدَلاً مِنهُ فى الْعَمَلِ .

مَاتَ ابْنُهُ إِبرَاهِيمُ ، فَكُسِفَتِ الشَّمسُ. فَقَـالَ النَّاسُ : إِنَّ الشَّمسَ كُسِفَت لِأَجلِ مَوْتِ إِبرَاهِيمَ . فَقَامَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ

فِى الْمَسجِدِ ، وَقَالَ : « إِنَّ الشَّمسَ والْقَمَرَ آيَتَانِ (عَلامَتَانِ) مِن آياتِ اللّٰهِ ، لَا تَنكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِهِ : فَإِذَا رَأَيْتُم ذٰلِكَ فَادعُوا اللّٰهَ ، وَصَلُّوا وَتَصَدَّقُوا » . وَلَو كَانَ مُحمَّدٌ الْأَمينُ مِمَّن يَتَصَيَّدُونَ الْأَدِلَّةَ لَسَكَتَ وَهُوَ حَزِينٌ ، وَوَافَقَهُم عَلَى أَنَّ هٰذَا الْكُسُوفَ آيَةٌ مِن آيَاتِ اللّٰهِ ، وَمُعجِزَةٌ مِن مُعجِزاتِ رَبِّهِ .

وَكَانَ ذَاتَ يَومٍ مُسَافِرًا ، فَأَمَرَ

أَصْحَابَهُ بِإِصلاَحِ شَاةٍ ، فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللهِ ، عَلَيَّ ذَبْحُهَا ، وَقَالَ آخَرُ : عَلَيَّ سَلْخُهَا ، وَقَالَ ثَالِثٌ : عَلَيَّ طَبْخُهَا . فَقَالَ رَسُولُ اللهِ : « وَعَلَيَّ جَمْعُ الْحَطَبِ » .

فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ ، نَكفِيكَ الْعَمَلَ .

فَقَالَ : عَلِمْتُ أَنَّكُم تَكفُونَنِي وَلٰكِن أَكْرَهُ أَن أَتَمَيَّزَ عَلَيكُم ، وَإِنَّ اللهَ يَكرَهُ مِن عَبدِهِ أَن يَرَاهُ مُتَمَيِّزًا بَينَ أَصحَابِهِ » .

وَبَعدَ فَتحِ مَكَّةَ وَانتِصَارِهِ عَلَى

الْكُفَّارِ مِن قُرَيشٍ جَاءَ رَجُلٌ — وَهُوَ يَرتَعِدُ مِن شِدَّةِ الْخَوفِ — لِيُبَايِعَ الرَّسُولَ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ ، وَيَشهَدَ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، وَأَنَّ مُحمدًا رَسُولُ اللهِ ، فَقَالَ لَهُ الرَّسُولُ : « هَوِّنْ عَلَيكَ (سَهِّلْ عَلَى نَفسِكَ) ؛ فَإِنِّى لَسْتُ بِمَلِكٍ ، إِنَّمَا أَنَا ابنُ امرَأَةٍ مِن قُرَيشٍ كَانَت تَأْكُلُ الْقَدِيدَ (اللَّحمَ الْمُقَدَّدَ) » . وَمِن أَقوَالِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ : « لَا يَدخُلُ الْجَنَّةَ مَن

كَانَ فِى قَلْبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ (قَدرُ أَصغَـرِ نَملَةٍ) مِن كِبْرٍ » .

عَدِىُّ بنُ حَاتِمٍ الطَّائِىُّ يَصِفُ الرَّسُولَ :

قَالَ عَدِىُّ بنُ حَاتِمٍ : دَخَلْتُ عَلَى مُحمدٍ وَهُوَ فِى الْمَسجِدِ ، فَسَلَّمتُ عَلَيهِ ، فَقَالَ : مَنِ الرَّجُلُ ؟

فَقُلتُ : عَدِىُّ بنُ حَاتِمٍ .

فَقَامَ الرَّسُولُ ، وَذَهَبَ بِى إِلَى بَيتِهِ ، وَفِى أَثنَاءِ ذَهَابِنَا لَقِيَتْهُ امرَأَةٌ ضَعِيفَةٌ كَبِيرَةُ السِّنِّ ،

فَطَلَبَتْ مِنهُ الوُقُوفَ ، فَوَقَفَ مَعَهَا مُدَّةً طَوِيلَةً ، وَهِيَ تُكَلِّمُهُ وَتَصِفُ لَهُ حَالَهَا .

فَقُلْتُ : وَاللهِ لَيسَ هٰذا بِمَلِكٍ .

ثُمَّ ذَهَبَ بِي رَسُولُ اللهِ حَتَّى إِذا دَخَلَ بِي بَيتَهُ ، تَنَاوَلَ وسَادَةً (مِخَدَّةً) مِنَ الْجِلْدِ ، مَحشُوَّةً لِيفًا ، وَقَدَّمَهَا إِلَيَّ ، وَقَالَ لِي ، اِجلِس عَلَى هٰذِهِ .

قُلتُ : بَل أَنتَ فَاجلِسْ عَلَيهَا .

فَقَالَ : بَلْ أَنتَ.فَجَلَسْتُ عَلَيهَا ، وَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ عَلَى الْأَرضِ . وَأَخَذَ

يَسألُنِى أسئِلَةً ، وَأُجيبُهُ عَنهَا ، حَتَّى تَأَكَّدْتُ أَنَّهُ نَبِىٌّ مُرْسَلٌ مِن عِندِ اللهِ ، يَعلَمُ أَشيَاءَ لاَ يَعرِفُهَا أَحَدٌ .

ثُمَّ قَالَ : لَعَلَّكَ يَا عَدِىُّ إِنَّمَا يَمنَعُكَ مِن دُخُولٍ فِى هٰذَا الدِّينِ مَا تَرَى مِن حَاجَتِهِم (فَقرِ الْمُسلِمِينَ) ، فَوَاللهِ لَيُوشِكَنَّ (لَيُسرِعَنَّ) الْمَالُ أَن يَفِيضَ (يَكثُرَ) فِيهِم حَتَّى لَا يُوجَدَ مَن يَأخُذُهُ . وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمنَعُكَ مِن دُخُولٍ فِيهِ مَا تَرَى مِن كَثرَةِ عَدُوِّهِم ، وَقِلَّةِ

عَدَدِهِـم ، فَـوَاللهِ لَيُوشِكَـنَّ أَن تَسمَـعَ بِالْمَرْأَةِ تَخرُجُ مِنَ القَادِسِيَّةِ (بَلْدَةٌ قُربَ الكُوفَةِ بِالْعِراقِ) عَلَى بَعِيرِهَا (جَمَلِهَا) تَزُورُ هٰـذَا الْبَيتَ لَا تَخَافُ . وَلَعَلَّكَ إِنَّمَا يَمنَعُكَ مِن دُخُولٍ فِيهِ (فِى هٰـذا الدِّينِ) أَنَّكَ تَـرَى أَنَّ الْمُـلْكَ وَالسُّلْطَـانَ فِـى غَيرِهِـم . وَأَيْـمُ اللهِ (أَحلِـفُ بَـاللهِ) لَيُوشِكَنَّ أَن تَسمَعَ بِالْقُصُورِ الْبِيضِ مِن أَرضِ بَابِلَ (اِسم مَوْضِعٍ بالْعِراقِ) قَد فُتِحَتْ عَلَيهِم .

قَالَ عَدِيٌّ : فَأَسْلَمْتُ .

وَقَد تَحَقَّقَ كُلُّ مَا قَالَهُ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ لِعَدِيٍّ . وَرَأَى المُسلِمينَ وَقَد فَتَحُوا الْقادِسِيَّةَ وَالْقُصُورَ الْبيضَاءَ مِن بَابِلَ .

الرَّسُولُ يَكرَهُ التَّصَنُّعَ :

كَانَ الرَّسُولُ صَلَّى اللهُ عَليهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْحَقِيقَةَ ، وَيَكرَهُ التصَنُّعَ وَالتَّكَلُّفَ ، وَيَمقُتُ (يُبْغِضُ وَيَكرَهُ)

الزَّخرَفَـةَ فِـى الكَـلاَمِ ، وَالتَّظَاهُـرَ بالْفَصَاحَةِ فِى الْخَطَابةِ ، وَيَقوُلُ : « مَن تَعَلَّمَ صَرْفَ الْكَلاَمِ (حِيلَـةَ الكَلاَمِ وَالتَّصَرُّفَ فِيهِ) لِيَستَبِىَ (لِيَمْلِكَ) بِـهِ قُلُوبَ الرِّجَالِ ، لَم يَقبَلِ اللهُ مِنـهُ يَـومَ الْقِيَامَةِ صَرْفًا وَلاَ عَدْلاً » . (الصَّرْفُ : التَّوبَةُ) .

« إِنَّ مِن أَحَبِّكُم إِلَىَّ ، وَأَقرَبِكُم مِنِّى مَجلِسًا يَومَ الْقِيَامَةِ ، أَحاسِنَكُم أَخلاَقاً . وَإِنَّ أَبغَضَكُم إِلَـىَّ ، وَأَبعَدَكُم مِنِّـى

يَومَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ (الكَثِيرُو الكَلاَمِ مَـعَ التَّكَلُّـفِ) ، وَالمُتَشَدِّقُـونَ (المُتَكَلِّمُونَ بِملْءِ أَفوَاهِهِم مَعَ التَّظَاهُـرِ بَالفَصَاحَـةِ ، وَالمُتَفَيهِقُـونَ) . قَالُـوا يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْمُتَفَيهِقُونَ ؟ قَـالَ : الْمُتَكَبِّرُونَ » .

الرَّسُولُ يَحلُبُ النَّعجَةَ بِنَفسِهِ :

فَى أَثْنَاءِ الْهِجـرَةِ إِلَـى الْمَدِينَـةِ مَـرَّ المُصطَفَى وَمَن مَعَهُ بِخَيمَةِ أُمِّ مَعبَـدٍ . وَهِىَ سَيِّدَةٌ عَرَبِيَّةٌ كَرِيمَةٌ : فَسَأَلُوهَا عَن

تَمْرٍ (بَلَحٍ) أَو لَحمٍ يَشتَرُونَهُ ، فَلَم يَجِدُوا عِندَهَا شَيئًا مِنَ التَّمرِ أَوِ اللَّحمِ .

فَقَالَت لَهُم : واللهِ لَو كَانَ عِندَنَا شَىْءٌ لَقَدَّمْنَاهُ لَكُم . فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ إِلَى نَعْجَةٍ فِى رُكْنِ الْخَيمَةِ . فَقَالَ : « مَا هٰذِهِ الشَّاةُ (النَّعجَةُ) يَا أُمَّ مَعبَدٍ ؟ فَقَالَتْ :

هٰذِهِ شَاةٌ لَم تَذهَبْ مَعَ الغَنَمِ لِتَعَبِهَا وَضَعْفِهَا . فَقَالَ الْمُصطَفَى :

هَلْ بِهَا مِن لَبَنٍ ؟ فَقَالَتْ : إِنَّهَا فِى

شِدَّةِ الضَّعْفِ ؛ فَلاَ نَأْخُذُ مِنهَا أَىَّ لَبَنٍ .

فَقَالَ : أَتَأْذَنِينَ (هَل تَسمَحِينَ لِى) أَن أَحلُبَهَا ؟

وَأَمسَكَ بِهَا . وَمَسَحَ ضَرْعَهَا (مَا فِيهِ الثَّدْىُ) ، وَقَالَ : « بِسمِ اللهِ الرَّحمٰنِ الرَّحِيمِ . اللَّهُمَّ (يَا اللهُ) بَارِكْ لَهَا فِى شَاتِهَا (نَعْجَتِهَا) » .

فَامتَلأَ ضَرْعُ النَّعْجَةِ لَبَنًا ، وَكَثُرَ لَبَنُهَا ، فَطَلَبَ إِنَاءً كَبِيرًا ، فَحَلَبَ فِيهِ حَتَّى مَلأَهُ ، فَسَقَى أُمَّ مَعبَدٍ ،

فَشَرِبَت حَتَّى اكتَفَت ، وَسَقَى أَصْحابَهُ ، وَشَرِبُوا مَا أَرادُوا مِنَ اللَّبَنِ . وَشَرِبَ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ آخِرَهُم ، وَقالَ : « سَاقِي الْقَومِ آخِرُهُم » .

وَالرَّسُولُ هُنَا أَحسَنُ قُدوَةٍ (مَثَلٍ) فِي الْآدَابِ الْعَامَّةِ ؛ فَقَد كَانَ مُتَوَاضِعًا وَحَلَبَ النَّعْجَةَ بِنفسِهِ ، وَسَقى أُمَّ مَعْبَدٍ أَوَّلاً ، قبلَ غَيرِهَا مِنَ الرِّجَالِ . وَهٰذا ما يَتَحَدَّثُ عَنهُ الْمُتَمَدِّنُونَ الْيومَ فِي قَولِهِم :

السَّيِّـدَاتُ أَوَّلاً . وَقَـالَ الـرَّسُولُ الْعَظِيمُ : « أُوحِىَ إِلَـىَّ أَن تَواضَعُـوا ؛ حَتَّى لَا يَفخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ » .

وَكَانَ رَسُولُ اللهِ يَحمِـلُ بِنَـفسِهِ مَا يَحتَـاجُ إِلَيـهِ ، وَيَقُـولُ : « صَاحِبُ الْحَاجَةِ أَحَقُّ بِحَملِهَا » . وَقَد حَثَّ عَلَى التَّوَاضُعِ ، وَقَالَ : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِن مَالٍ . وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إِلاَّ عِزًّا . وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلهِ إِلاَّ رَفَعَهُ » .